أمّا عن الجزءين الثاني والثالث، فهُما حالةٌ من الخلط الغريب بين رعب التوصيف وكوميديا الحركة ومأساة المشهد. مَنْ يحكي لمن ومَنْ يستمع، ولمن الكرّاسة ولمن الدّفتر، ومَنْ صاحبُ هذه الحكايات الغريبة؟ وفي حين جاء الجزءُ الأوّل سريعَ الحركة، متقطّعَ الأنفاس، مضطربًا، يَسْرد ابنُ خلدون فيه ويهرب، فإنّ الحركة هنا هدأتْ، وارتاح السّردُ إلى رواية الراوي، وألِف نهجَه، فجاء مستقرّاً ثابتًا وبطيئًا يمشي على أرض صلبة، يتقاسمه (أي السّرد) كلٌّ من بولحية والنيقرو والراوي الذي يختبئ وراء أصوات الجميع ويقفز في السرد معترضًا أو مؤيّدًا أو ساردًا أو مؤرّخًا أو معلّقًا أو مكمّلاً لأحداثٍ سبقتْ. كلٌّ منهم مشغولٌ بحكاية الجاني وحكايات أخرى لا ترتبط إطلاقًا بالجاني ولا بالمشرط، إلى درجة أنّ الجاني ينحصر فيهم وتضيع هويّاتُهم في خضمّ الاستطرادات والقفزات السرديّة، فلا يتركون المجالَ لطرح أسئلةٍ تتعلّق بالجريمة أو الجاني.

لا نعرف بالضبط في المقاطع الأخيرة من الرواية مَنْ يروي ماذا؛ ومَنْ منهم قابَلَ ابنَ خلدون ودوّن حكايتَه، ومَنْ جلس في مقهى الروتند مع سيّدته، ومَنْ رَوى سيرتَه مموّهةً. الكلّ يشكّ في الكلّ، ويضيعُ القارئُ في ركام الأحداث في بحثه عن الحقيقة. وما الحقيقة هنا؟ مَن أعمَلَ المشرطَ في مؤخّرات النّساء؟ تنتهي الروايةُ دون أن تقدّم إجابةً على السؤال. ما تبقّى للقارئ مؤامرةٌ غريبة، خيوطُها غيرُ مكتَملة، بدأتْ حديثَها في خبر صحفيّ عن جانٍ أعمل مشرطه في مؤخّرات النّساء فيجري البحثُ عنه، وانتهت من دون أن تكشفَ عن هويّته: أتراه يكون واحدًا من الرواة؟ أمْ أنّه امرأة؟ أمْ أنّها مؤامرة اختبأ من ورائها الراوي الحقيقيّ ليقول أشياءَ أخرى عن واقعٍ يضجّ بالعبث والفساد، واقعٍ أغرب بكثيرٍ من الحلم والفانتازيا؟

عن النسانيس والمشارط الأخرى هي هذه الرواية. عن شيء لم تقُلْه. شيءٌ من الطّرائف والأخبار، وشيءٌ من فنّ السرد، وشيءٌ من الخوف، وكثيرٌ من شيء آخر أعمق يَشْرط وجهَ الواقع.

لقد وَجدتِ الروايةُ الحقيقيّةُ طريقَها!

المشرط روايةٌ تونسيّةٌ غادرة، لم نسمعْ فيها إلاّ صراخًا وعويلاً وبكاءً. فوضى متراكبة الواقع.

يسأل الراوي: «مَنْ يصدّقُ هذا الهراء؟»

ونجيب: لا يمكننا إلاّ أن نصدّق هذا الهراء.

فلسطين

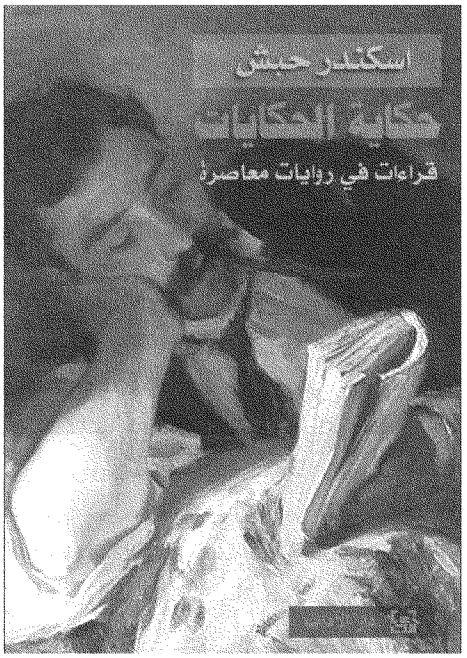

إنّه كتاب في «خرائطيّة» الرواية، وأستعمل هذه الكلمةَ بمعناها الحرفيّ، أيْ سفر وتجوال في بلاد مختلفة الأهواء. حتى الكتّاب الذين أتناولهم ينتمون إلى مدارس وتيّارات فكريّة وأدبيّة وأسلوبيّة متنوّعة. فأنا لم أستطع التعلّق مرّةً بنمط كتابيٍّ واحد. وأكثرُ ما يدهشني قدرة البعض على الانحياز إلى أسلوب محدّد، لدرجة أنّه يصبح من محازبيه. هل بهذا المعنى يكون الأدب نوعًا من إيديولوجيا والقرّاء رجالَ ميليشيا؟ أعتقد أنّ أكثرَ ما قتل الأدبَ هو هذه «العقيدة» التي تعلّق بها البعض.